

به ليلاً ويكمنون نهاراً إلى أن أوصلوه إلى الزميح من القبيلة الأنجورية حيث
ضريحه الآن .

وكانت وفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف .

الباب الثالث

في ولادته ونشأته وطلبه للعلم وسلوكه الطريق ومجمل تاريخ حياته
ولد رضى الله عنه ليلة الجمعة ، خامس رجب سنة خمس وتسعين
ومائتين وألف بتجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية .

وحفظ القرآن وهو صغير برواية ورش ؛ ثم شرع في حفظه بالروايات
السبع ، فقرأ ختمه برواية المكي على شقيقه سيدى احمد ، ثم شرع في
طلب العلم ببلده على اخيه العلامة البارع ، صاحب الأخلاق الحسنة سيدى
محمد القاضى وعلى ابن عمه العلامة المحقق زين العابدين بن محمد المؤذن ،
فأخذ عنهما بعض المبادئ ، ثم رحل به والده إلى فاس سنة اثنتى عشرة
وثلاثمائة وألف .

وانزله بمدرسة الشراطين ، ولم يذهب به إلى زاوية اصحاب ابيه لينقطع للعلم
ولا يشغله الفقراء عن طلبه ، فابتدأ يقرأ الأجرومية بشرح السودانى على أبى
عبد الله محمد بن التهامى كنون وبعض الكتب الصغيرة على غيره فصعب عليه
الأمر وصار لا يدرى مايقوله الاساتذة فقابله يوماً رجل لا يعرفه فقال له اعطنى
سبعة ريال ولم تكن عنده فذهب في الحال ورهن شرح عبد الباقي الزرقانى
على مختصر خليل وأتاه بها وانصرف ثم بعد ذلك رأى في ليلة كأن رجلاً أتاه
وقال له هات الكتاب الفلانى لكتاب سماه فأتاه به فصار يقرأه معه إلى أن
أكمله أو قارب فلما انتبه وذهب للدرس وجد نفسه كأنه كان يقرأ من دسنيين وصار
لا يقرر الأستاذ معنى إلا أدركه في الحال وكذلك إذا طالع هو وحده يفهم
بسرعة من غير معين ولا مذاكر ، ثم حصل له مرض ألزمه الفراش ، فبينما هو

ذات يوم في بيته من المدرسة إذ دخل عليه الشيخ الامام العارف القدوة بقية السلف الصالح القطب الرباني سيدي محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له أنا بنفاس وأنت وحدك بالمدرسة هذا لا يمكن قم معي ، فأخذه الى الزاوية وبر به وأكرمه غاية ، وأتاه بكل ما يحتاجه من كتب وملابس ، وصار يخدمه بنفسه ، وكلف الفقراء أصحابه بخدمته أيضاً ومراعاته ، ثم صار يكتب له المتون في لوح ويقول له إن حفظته أعطيتك ربع ريال فكان كلما حفظ لوحاً أعطاه إياه تحريضاً له على حفظ المتون فكتب له الخلاصة ومختصر خليل . وكان يقرأ معه ذلك في الزاوية ويفهمه معني المتن بطريق الاختصار ثم لقنه الورد وجرده لسلوك الطريق مع طلب العلم ، فكان يرتضع لبان الشديين في آن واحد وقرأ معه أيضاً الحكم لابن عطاء الله والمعهود المحمدية والمنن الكبرى للشعراني ورسائل جده سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن والتنوير لابن عطاء الله وكان إذا مر بشيء صعب شديد سلوكه يقول له مر على هذا فقد انقضى زمانه يريد بذلك التيسير عليه والاشارة الى أن فتحه سيكون من باب الفضل والمنة لا من باب السلوك والمجاهدة وكان يرفق به غاية فلا يكلفه بما يكلف به غيره من الفقراء فكان يوقف جميعهم قبل الفجر بنحو ساعتين ويتركه نائماً قبيل الفجر بقليل حتى كان بعض الفقراء يغار منه . فكان الشيخ يقول لهم ابن الصديق من المحبوبين عند الله ، وأمره بالحضور على علماء القرويين وعين له من يقرأ عليهم لصلاحهم وبركة علمهم ثم لما كانت الزاوية بعيدة عن القرويين صار يصوم أيام اقراءة حتى لا يرجع وسط النهار إلى الزاوية لتناول الطعام وأمره الشيخ أن يذكر الله جهراً في شوارع فاس إذا نزل للدروس بعد أن وضع السبحة في عنقه فثقل عليه ذلك الأمر غاية حتى كان يتمنى الموت وكان يخيل إليه أن حيطان فاس تنظر إليه وتسخر منه ومن صوته ولم يأمره شيخه بشيء أثقل على نفسه ولا أشد عليها من الذكر جهراً بالطريق ، لا سيما مع صغر سنه وطلبه للعلم فاستمر على ذلك نحو ثلاث سنين جمع الله له فيها بين الحصول على علم الظاهر والفتوح

في العلم الباطن ، ولم يحتاج بعدها الى شيء ، وصار أعلم أهل عصره ومصره .
 أما تفصيل قراءته فحضر على الشيخ الامام العلامة المحدث الصوفي أبي
 عبد الله سيدي محمد بن جعفر الكتاني في مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق
 بشرح الخرشى والزرقاتي معا وسمع عليه موطأ مالك وبعض صحيح مسلم
 وقرأ عليه أيضاً جل الخلاصة بشرح المكودي ، ومقدمة جمع الجوامع لابن
 السبكي وكان لا يفهم ما يقرره الشيخ فيها كما ينبغي ، فسأله يوماً شيخه سيدي
 محمد بن ابراهيم رضي الله عنه هل تفهم الأصول فأجابه بالواقع قرأتك تلك
 الليلة أو بعدها كأن امارف سيدي عبد الوهاب الشعراي رضي الله عنه أتى
 اليه ولقنه ورد الطريق وأتى معه بشرح جمع الجوامع للمحلي ، وشرع يقرأه
 معه من أوله حتى ختمه

فلما استيقظ وجد نفسه يفهم الكتاب ولم يقرأ بعد ذلك الأصول وصار
 إماماً فيه يتقن أصوله وفروعه ويدري جايه وخفيه وينظر فيه كما أنه صار
 إماماً في الفقه منقطع النظر فيه لاسيما الفقه المالكي فكان يحفظه كما
 يحفظ غيره متناً من متونه ويدريه كما يدري غيره مسألة واحدة
 منه وذلك بسبب رؤيا رآها أيام طلبه وهي أنه رأى الامام مالكا
 رضي الله عنه في قبة كبيرة عامرة بالكتب فلما دخل عليه ، قال له :
 ائتني بكتاب من ركن القبة أقرأه معك فأتاه بكتاب ، فلما فتحه إذا
 هو العتبية فقرأه معه فحصلت له بركة تلك القراءة وكانت اشارة إلى أنه
 سيصل رتبة الامامة فيه حيث تلقاه عن إمام المذهب .

وحضر أيضاً على شيخ الجماعة الامام الصوفي أبي العباس سيدي أحمد
 ابن الخياط في الخلاصة بشرح المكودي وصحيح البخاري بشرح القسطلاني
 والشاملي بشرح جسوس والهمزية والمرشد المعين .

وعلى العلامة الصالح سيدي الفاطمي الشراي في المختصر والخلاصة
 بتوضيح ابن هشام والمكودي معاً وفي مختصر السعد على التلخيص وتحفة

- الحكام لابن عاصم إلا أنه لم يحضر من هذه إلا القليل .
- وعلى العلامة محمد بناني إمام جامع الديوان في المختصر والخلصة .
- وعلى العلامة محمد جنيون بالتصغير في المختصر بشرح الدردير وفي المطول بحواشيه وفي صحيح البخاري وشفاء القاضي عياض .
- وعلى ولي الله تعالى صاحب الأحوال أبي العلاء إدريس عمور أوائل الخلاصة والسلم في المنطق .
- وعلى الشريف أحمد العلمي الاربعين النووية وأوائل رسالة العضد ورجز ابن كيران في الاستعارة .
- وعلى العلامة النحوي خليل الحشمي المعروف بسبويه الخلاصة لابن مالك قراءة بحث وتحقيق .
- وعلى العلامة الجليل الصوفي الوجيه السيد الكامل الامراني مختصر خليل مجرداً عن الشروح ، بل كان يقرر المتن ويحمله مع بعض أبحاث رائقة .
- وعلى العلامة محمد بن التهامي كنون شرح الاجرومية للسوداني وكتاب الجمل للمجراد وقطعة كبيرة من الخلاصة وأوائل الشمائل بشرحه هو أعنى كنون وقطعة من الهمزية وجملته كبيرة من المختصر بشرح الخرشى .
- وعلى الولي الصالح سيدي عبد الملك العلوي الضرير مختصر خليل بالخرشى من أوله إلى الوقت المختار وقطعة من شرح السنوسية ومبحث الفصاحة والبلاغة من شرح الناخيص .
- وعلى فقيه المغرب ومفتيه سيدي المهدي الوزاني أبواباً من الخلاصة .
- وعلى الفقيه أحمد بن الجيلاني لامية الافعال ، وقليلاً من التصريح المازهرى .
- وعلى العالم الجليل أحمد بن الطيب الفيلاي لامية الافعال أيضاً .

وعلى العلامة الشريف سيدي المأمون العراقي الخلاصة .

ثم رجع إلى وطنه في ربيع الثاني من سنة خمس عشرة ثم عاد إلى فاس فلزم شيخه بالزاوية إلى سنة ثمان عشرة ثم نزل بسلام وعزم والده على تزويجه ببلده ، فاختار هو أن يأخذ بنت خاله الشريف البركة الصالح الذي ذكر الناسك سيدي عبد الحفيظ ابن عجيبة بإشارة من شيخه ، وكان خاله يسكن مدينة طنجة فقصده لذلك الغرض فأجابه وشرط عليه السكنى بطنجة فكان ذلك هو السبب في سكنها فتزوج بها واستوطنها ، وشرع في تدريس العلم بها فقرأ الشامل الترمذية ، ثم الأجرومية ، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودي ، ثم بعد ختمها افتتحها مرة أخرى بشرح ابن هشام والمكودي معا . وقرأ لامية الافعال والسلم الاخضرى بشرح بناني وهمزية البوصيري والمرشد العين ومختصر خليل بشرح الخرشي .

قال العبادي: كان القاري يسرد الخرشي بعد ما كان الشيخ يأتي بكلامه وتقرير جميع ما عند الاجاهرة وبناني والرهوني تقريراً لو كان أصحاب تلك الكتب أحياء لاستفادوا من كلامهم ما لم يقصدوه من الفوائد زيادة على ما قصدوه وقرأ فرائض المختصر على حدة وصحيح البخاري ، وشرع في التفسير فقرأ نصف الفاتحة في شهر رمضان ، ثم لم يتيسر له العود اليه بسبب انقطاعه في البيت وقرأ التفسير بعد ذلك على طريق إشارة الصوفية مع الفقراء بتفسير جده للام سيدي أحمد بن عجيبة .

قال في نبذة التحقيق : وكان إذا أنهم بدرس أو تهيأ لموعظة أو خطبة ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وأول خطبة ذاع فيها صيته خطبة خطبها بعيد شوال صدر العشرة الثالثة استنابه فيها على حين غفلة قاضي الوقت لغرض عرض فأملأها من حفظه في نحو ساعتين وهي من خطب العلامة الرهوني ، إلا أنه أضاف اليها ما يناسب الوقت والحال وأطال في

المجال مع أدعية بالغة ، وغير ذلك . فأنهر الحاضرون من سعة حفظه وعدوبة لفظه وتأثير وعظه .

ثم اشتهر أمره وصار الطلبة يلجأون إليه ويلحون عليه فساعدهم وفتح مرة صحيح البخارى فشهدنا كغيرنا من أماليه ما بهر العامة والخاصة إلى آخر ما قال .

وانتفع بقراءته الناس وتخرج عليه جماعة من أهل الحواضر والبوادي وكان في تدريسه البركة الظاهرة يحضره الطالب زماناً يسيراً فيحصل له الفتح وينال الحظ الأكبر والنصيب الأوفر من ذلك العلم بل ومن غيره .

وكان الطالب إذا حضر عليه مرة لا يستطيع أن ينتفع بغيره ولا تقبل نفسه الجلوس على أحد بعده لكونه لا يرى في قراءتهم مارآه في قراءة الشيخ من الفصاحة والحفظ وكثرة الاطلاع وشدة الاستحضار حتى أن بعضهم شد الرحلة إلى فاس ثم رجع وقال ان قراءة الشيخ أفستنا ولم تترك أحداً غيره يكبر في عيننا وكذا قال غيره لما شاهد قراءة العلماء بالخرمين الشريفين .

أضف إلى هذا رونقا يكسو مجلسه وأبهة تعلو منظرة ودرسه لا توجد في مجالس غيره ثم في أوائل اشتهاره بالتدريس بطنجة تعرف إليه جمع من الأفاضل فكانوا يجالسونه كثيراً ويسمعون من فوايده ومذكراته في العلم والطريق وأخبار الأولياء والشيخوخ ، فاشتقت نفوسهم للأخذ عنه فلقنهم ورد الطريقة الشاذلية . ثم صاروا يجتمعون عليه وهم نفر قليل . وكان أكثر اجتماعهم بدكان الرجل الصالح سيدي محمد الجزيري رحمه الله وكان يصنع فيه الأحذية . ثم لما كثروا صار يقعد معهم مجالس الذكر صباحاً ومساءً بزاوية العارف بالله سيدي محمد الحراق من طنجة ، وذلك أواخر سنة اثنتين وعشرين .

قال في النسمات وعند دخول سنة ثلاث وعشرين فاضت أسراره وظهرت

أنواره وأشرفت على الحواضر والبوادي ثموسه وأقاربه وكسيت البلد بظهوره
حلة الأنس والفرح كما لبست عند موته ثوب البؤس والحزن والترح فتوارد
الناس لأخذ الطريق عنه رجالا ونساء وانجذبت القلوب إلى الله بهمته وارتفعت
همم من سبقت لهم العناية عن حضيض السكون وخسته صار رجل من في البلد يلهج
بذكر الله وانقلب حاله من الغفلة إلى اليقظة وتعلق قلبه بالله ذلك كله غيبا بنفوذ
همته وقوة حاله من غير أن يدعو أحداً لأخذ الطريق عنه والانتساب إليه وفي هذه
السنة أضاف إلى مجاس الذكر المذاكرة مع الفقراء في مقامات الطريق وآداب
السلوك . وكانت على غاية ما يكون من الأبهة والأدب والسكينة والوقار
والخشوع وفيضان الأنوار حتى كأن الفقراء الحاضرين على رؤوسهم الطير من
قوة حاله ، وعظيم هيئته ، وطيب أنفاسه .

وكانت أنواره تسبق كلامه ، وترتاح الأرواح لسماحه من غير ملل ولا
سآمة ، وأخذ بمجامع القلوب . وكان كله في الحض على اتباع الشريعة والعمل
بالسنة ، والتعلق بالأخلاق النبوية ، والتحقق بها حالا ومقالا وعلماء وعملا .
وكان شديد الغيرة ، والتستر على الحقائق والأسرار فلا يفشيها ولا يذكر
منها إلا القدر المباح كما كان عليه أستاذه .

وكان يقول : لا ينبغي للمريد في بدايته أن يشتغل بمطالعة كتب الحقائق
والأسرار ، ككتب الخاتمي والجيلي وأمثالها من كتب الوحدة ، فان ذلك
ما يوقف المرید ويمنعه الوصول إلى المقصود ، لأن الحقائق والأسرار
لا يتوصل إليها من الكتب ومطالعة الدفاتر ، وإنما تدرك بالعمل والمجاهدة
وصحبة الأشياخ .

فمن عمر أوقاته بالطاعات والاذكار مع امتثال أوامر الشيخ وإرشاده في
ذلك نبعت منه الحقائق ، وتفجرت من قلبه عيون الأسرار من غير مطالعة
كتاب .

وقرأ مع الفقراء رسائل جده القطب سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن ثم رسائل شيخه القطب الاكبر مولاي العرنى الدراوى مرتين بمذكراته النافعة ، وإشاراته الجامعة ، ثم العهود للعارف الشبرانى ، ثم المباحث الاصلية لابن البنا بشرح ابن عجيبة ، ثم الحكم العطائية بشرحه أيضاً . وأعادها بشرح ابن عباد ، ثم جملة من تفسير ابن عجيبة ، ثم بعد إقامته بالزاوية الحراقية نحو أربعة أعوام بنى زاويته الكبيرة التى دفن بها وانتقل اليها . وكان السبب فى ذلك بكرامة من كراماته .

وكان فى أول قدومه إلى طنجة وشروعه فى التدريس ، ابتداءً بخطب بالزاوية الناصرية . فوقع الاقبال على خطبه كما وقع على دروسه .

قال فى النسمات . وكانت خطبه بليغة كثيرة النفع ، شديدة التأثير ، يحض فيها على اتباع الكتاب والسنة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر لا تأخذه فى الله لومة لأثم ، ولا يرهب بطش جبار ولا سطوة حاكم . بل كان يقول الحق وان كان مرا ، ويدور معه دوران من هو معتمد على الله سرّاً وجهرّاً فوقعت له بسبب ذلك وقائع هائلة وقضايا هامة .

منها : أن الفرنسيين قبل احتلالهم المغرب كانوا أرسلوا بعض الشياطين من أذنانهم إلى طنجة ، ففتحوها بها مدرسة لتعليم الاولاد اللغة الفرنسية توصلوا بذلك إلى ما بعده . فسارع بعض المغرورين الراغبين فى الدنيا إلى إدخال أولادهم فيها ، فلما علم الشيخ بذلك خطب خطبة بليغة حذر فيها المسلمين من إدخال أولادهم مدارس النصارى ، وبين ضرر ذلك فى الدين ، وما يترتب عليه من المفساد فى الاعتقاد والاخلاق ومصالح البلاد وبالغ فى ذلك ، وأطنب ، وأطال ، فأثرت خطبته فى الناس . وسارع جل من أدخل أولادهم المدرسة إلى إخراجهم منها ، فاغتاز لذلك سفير فرنسا ، واحتد غضباً ، لأنها أول بذرة بذروها فى المغرب لحصد الشر والفساد منه ،

فأفسدها عليهم الشيخ بخطبته ، فأرسل إلى الباشا وهو حاكم المدينة يأمره بعزل الشيخ من الخطبة ، ويتوعده بما لا تحمد عقباه ان لم يفعل ، فداخله رعب شديد ، وكانت فرنسا اذ ذاك متحفزة للوثوب على المغرب ، فأرسل الباشا بعض أعوانه الى الشيخ يطلب منه القدوم ليكلمه في ذلك ، فلم يصل الى الشيخ حتى شاع الخبر في الناس بأسرع من لمح البصر . فاجتمعوا وتوجهوا الى الباشا والشيخ معهم . فلما وصلوا الى المحكمة شرعوا في قراءة سورة الفتح بلسان واحد . رافعين بها أصواتهم . فارتجت المحكمة ودهش الباشا ، وبقي في انتظارهم الى أن ختموا السورة ، فقال ما مرادكم . فقالوا ان يبقى الشيخ على حاله ولا يعزل من الخطابة وطلب فرنسا لذلك تدخل منها فيما ليس هو من شأنها ، بل من شأن ديننا ونحن أحرار فيه فأجابهم بالموافقة ثم أقبل على الشيخ وأخبره بما أزره به السفير المذكور وما توعده به مع ما عنده من أوامر السلطان بمراجعة سفراء الدول ، وبالغ في الاعتذار فقبل الشيخ عذره ، وانصرف مكرماً معزراً مستمراً على خطابته الى ان تركها بعد ذلك باختياره . فكانت هذه القضية أول حجر في أساس الخلاف بين الشيخ وفرنسا .

ثم بعد ذلك حصلت قضية أشد من هذه في شأن أمة للشيخ ، تعلقت بعلم فرنسا للتوصل الى بعض اغراضها الفاسدة . وارسل سفير فرنسا الى نائب السلطان يأمره باجبار الشيخ على عتقها لتعلقها بعلم فرنسا فامتنع من ذلك في قصة طويلة كانت من اعظم الاسباب في ازدياد حقد فرنسا على الشيخ رضي الله عنه ، وكانت قضية الامة عجيبة لا تخلو من حكمة مقصودة للشيخ رضي الله عنه فانه كان لا يلتفت الى مثل هذه الاشياء ، ولا يشدد في ملك جارية ولا غيرها . بل لو كانت الدنيا كلها ما وقف لأجلها ذلك الموقف ولا أمر بالقبض عليها إلا انه اراد تبكيك فرنسا وتعريفها انه لا يعتبرها ولا ما كان من جهتها .

ثم بعد هذه القصة المشروحة في الأصل تابعت قضايا الخلاف بين الشيخ وفرنسا إلى أن بلغ الأمر منتهاه بعد احتلالها المغرب .

واشتهر الشيخ بين جميع رجالها بالمغرب وحكامها فيه انه العدو اللدود لفرنسا . فسلكوا معه كل المسالك وأطعموه بالأموال والمراتب وتنفيذ الكلمة . والمساعدة على نشر طريقه في سائر أنحاء المغرب ، وغير ذلك ، كما فعلوا بغيره . فام يزدده ذلك إلا عداوة لهم وتباعدا منهم إلى أن لقي الله تعالى وهو على ذلك .

ثم لما أيسوا من ميله شرعوا يحاربونه في أصحابه وأتباعه بالمغرب ، ويعا كسونه في كل ما كرهه ، ويقفون في وجه مقاصده لآخوانه وأصحابه ، لا لنفسه ، فانه لم يكن له مقصد من الدنيا أصلا كل ذلك والحق سبحانه وتعالى يناقض مقصودهم ، ويهيء للشيخ كل ما يريد ، ويقضى حوائج كل من يتعلق به على يدهم أيضا في حال عداوتهم الشديدة إياه ، والله غالب

فصل

وفي سنة تسع وعشرين توجه الشيخ بأهله وجماعة من أصحابه ، وهم تسعة وعشرون نفسا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومر بطريقه على الجزائر فزار بها ضريح ولي الله تعالى سيدي عبد الرحمن الثعالبي . ثم لما وصل إلى بور سعيد امتنع المصريون من انزاله إلى قطرهم كما هي عادتهم مع الحجاج ، فاضطر إلى الذهاب في البابور الذي كان فيه إلى اليمن ، فنزل بمرسى عدن ، وأقام بها تسعة أيام ، ثم توجه منها إلى مصوع من بلاد الحبشة ، فأقام بها ثمانية عشر يوما أكرمه فيها أعيان البلد ووجهائها غاية الأكرام . وكانوا يترددون إليه للزيارة والتبرك والاتفاع بالمجالسة والمذاكرة ، وقضى بها عيد

النظر ثم بعده بأيام توجه الى جدة . ومنها الى مكة المكرمة ، وكان وصوله اليها بعد منتصف شوال بقليل . فأقام بها نحو شهرين كانت كلها مواسم وأعيادا عامرة بأنواع الطاعات والمسرات . يجتمع اليه فضلاء الحرم وعلماؤه وشيوخه فتمضى مجالسه معهم كأنها رياض موقنة يقتطف منها أزهار العلوم والمعارف وأنوار الفوائد واللطائف .

وكان في تلك الأيام يتظاهر بمزيد العبودية ، والتواضع ، والقناعة والتقشف ، والاقتصاد في المأكل والملبس ، ويحث الفقراء على ذلك ويحذرهم من التوسع ، وتناول الشهوات ، ويقول لهم : هذه الأماكن الشريفة لا يليق فيها الا الذل والتواضع لله تعالى . ومن تمام ذلك التقليل من الشهوات والزهد في المملذوذات ان كان المرء يريد قبول الحج والحصول على ثمرته والا فهو مجرد فسحة وسياحة ونزهة . بل ينبغي لطالب الآخرة والراغب في رضى الله تعالى أن ينفق ما معه على فقراء الحرمين وأشرفهما وعلماهما عوضا عما سينفقه في شهواته وأغراضه . وكذلك كان هو رضى الله عنه لا هم له الا التصديق والمواساة وصلة العلماء والاشراف وأهل الخير والصالح .

وكان لا يتظاهر بعلم ولا مشيخة ولا مافية رأحة تقدم وظهور . ولما طلب منه اهل مكة أن يلتقى دروسا في المسجد الحرام وأهل المدينة أن يلتقى دروسا في الحرم النبوي امتنع من ذلك ، وقال : كل ما ينسب الينامن العلم والصالح تركناه في بلدنا ، وخرجنا منها متبرئين من علمنا وعملنا ، مفتقرين الى الله ، راجين فضله وعطفة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وقفة عرفة تلك السنة يوم الجمعة التي ورد فضل الوقوف بها على سائر الأيام . ولما كان بعرفة وقف في موضع مخصوص وأخبر الفقراء من باب الكشف : انه الموضع الذي وقف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا الموضع الذي يقف به الامام ويظن الناس أنه موضع وقوف رسول الله

صلى الله عليه وسلم . وفي يوم الأضحى اجتمع الشيخ وأصحابه بشيخه ،
 وشيخنا الانام العلامة الصوفي سيدى محمد بن جعفر الكتانى إذ قدم من
 المدينة المنورة للوقوف بعرفة . كان الجمع حافلا ، مشتملا على جماعة من
 العلماء والفضلاء والفقراء الصوفية والمنشدين . فشرعوا فى الانشاد ، فطاب
 الوقت وركت القلوب . وقام الشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى متواجدا
 وقام الشيخ رضى الله عنه ، فقام الحاضرون كلهم وتواجدوا بذكر الله تعالى
 والفرح به ، فكانت ساعة من أبرك الساعات .

ثم فى أواخر الحجّة توجه إلى المدينة المنورة ، فهل عليه هلال المحرم ،
 فاتح سنة ثلاثين قبل وصوله إلى المدينة بمرحلتين . ولما بلغ المكان الذى تظهر
 منه قبة النبي صلى الله عليه وسلم لم يملك حاله . فرفع صوته بالصلاة عليه
 صلى الله عليه وسلم ، وصار يستشفع به الى الله تعالى أن يمنحه كمال الأدب معه
 صلى الله عليه وسلم ومع جواره وسكان مدينته المنورة . وكان ذلك منه
 رضى الله عنه بحال قوى ، فسرى فى الحاضرين كلهم . فرقت قلوبهم وذرفت
 عيونهم .

ثم لما دخل إلى المدينة بادر إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم
 خرج إلى البقيع . فلما وصل إليه خلع نعله . فخلع الناس نعالمهم . فزار من
 به من آل البيت الأطهار والصحابة والفضلاء الأخيار . ثم رجع وأقام بالمدينة
 المنورة ثلاثة أشهر كانت من أبرك الأوقات وأطيبها عامرة بأنواع الطاعات والاجتماع
 بأفاضل الوقت وعلماؤه فى المذاكرة بأنواع العلوم . وكان أكثر ذلك بحضور
 شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى ، وغالبها بمنزله . وأقبل عليه علماء
 المدينة ، ومن كان بها من علماء الأقطار وفرحوا به ، وأجلوه وأعظموا
 منزلته السامية . فى العلم ، والحفظ ، والاطلاع ، والتبحر فى سائر الفنون .
 فكانوا يجتمعون به فى أغلب الأوقات ، وبكل المناسبات ، وعملوا له ولائم

وعزومات . ثم في أواخر ربيع الأول غادر المدينة ، متوجهاً إلى الشام . وفي اليوم الثاني لقدمه . شاع خبره بين العلماء والأفاضل . فسارعوا إلى زيارته والاجتماع به ، وأكثروا من استدعائه إلى منازلهم مع أصحابه وأتباعه . وانتفعوا بمذاكراته وأحبوه ومالوا إليه . وكان كثير منهم لا يفارقونه .

ثم بعد مدة توجه إلى بيروت ، وفي اليوم الثاني من دخوله شاع خبره بين أهلها أيضاً ، فجاؤا لزيارته وفي مقدمتهم العلامة الشهير . صاحب المؤلفات الكثيرة في جناب الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ يوسف النبهاني . فزاره وتبرك به ثم توجه منها إلى القاهرة وأقام بها نحو أربعين يوماً اشترى بها كثيراً من الكتب ، وزار ضواريح آل البيت والأولياء المشاهير وشد الرحلة إلى طنطا لزيارة القطب سيدى أحمد البدوى . وتعرف إليه شيوخ الأزهر وعلمائه ، وفي مقدمتهم عالم الديار المصرية الشيخ محمد بن حيت رحمه الله فأحبه كثيراً وأجله . واعتقد فضله ، وصار بعد ذلك يحبه ويذكره في المجالس والمحافل .

ووقع للشيخ مع بعضهم مناظرات في مسائل علمية وأحوال خالفوا فيها السنة والشريعة كحلق اللحى وشرب الدخان والملابس الأفرنجية .

وكان يقول في حق أهل مصر : ان هؤلاء القوم كادوا يرجعون إلى قبيلتهم الأولى ولم يبق لهم من الإسلام إلا الأسماء واللغة العربية . ثم توجه راجعاً إلى المغرب من طريق بورسعيد ، فلم يتهياً له الركوب ، فأقام به نحو شهر في انتظار ورود الباير ولد له فيه مولود ، سماه محمد الزمزمى ، وذلك يوم الأربعاء ، خامس عشر جمادى الأولى سنة ثلاثين . وفي الشهر الذى بعده وصل إلى طنجة .

فصل — ل

ووافق عند رجوعه من الحجاز أن تمت المعاهدة بين السلطان عبد الحفيظ ودولة فرنسا على احتلال المغرب بعد أن سبق احتلال بعض مدنه قبل ذلك ، فلما أمضى معهم الاتفاق على ذلك تنازل عن الملك لأخيه يوسف ، ثم توجه الى الحجاز . فلما وصل الى المدينة المنورة أظهر التوبة والانابة ، وأكثرت الصدقات والبر بأهل المدينة . وكان يتظاهر قبل ذلك بحجة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى وتعظيمه ، فأتى اليه وأظهر له من الأدب والتواضع ما غره به ، لسلامة نيته وحسن طويته . فأقبل عليه وأكرمه ، وجعله من خاصة أصحابه .

ثم لما عزم عبد الحفيظ على الرجوع الى المغرب طلب من الشيخ المذكور أن يرشده إلى عالم يقتدى به ويهتدى بهديه ، ويعول في أمور دينه عليه ، فأرشده الى الشيخ رضى الله عنه ، وقال له ليس بالمغرب اليوم مثله . لا سيما وهو بطنجة التى اختار عبس الحفيظ الاقامة بها . ثم كتب سيدى محمد بن جعفر رضى الله عنه الى الشيخ كتاباً قال فيه .

أما بعد : فوجبه تجديد العهد بكم والسؤال عن أحوالكم أدامها المولى سبحانه على وفق مرادكم واعلامكم بأن سلطان مغربنا الشريف العلامة . مولاي عبد الحفيظ بعد مآزار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم واستسلم اليه وانقاد بين يديه متضرعاً خاضعاً وجمعنا الله سبحانه وتعالى به جرى ذكركم بما نعلمه منكم فاشتاق اليكم ، وأحب أن يكون له اجتماع بكم واخوة مع جنابكم ، وارشاد منكم إلى ما فيه الصلاح لدينه والنجاح في أخراه ، وعليه فنحب منكم ، بارك الله فيكم أن تعملوا على ذلك ، وتقبلوا اخوته ، وتعاملوه معاملة أخص إخوانكم اليكم محبة وارشاداً ونصحاء ، ولا تقصروا في ذلك ، والله

تجازيكم ، وقد أعلن في هذه الحجة بما أعلن به الأوابون . ثبتنا الله وإياه
على ذلك وقوانا على العمل به وعلى محبتكم الخ . وهو مؤرخ بيوم الأربعاء
تاسع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فلما وصل الكتاب الى الشيخ قدس سره . قال غره عبد الحفيظ بظاهر
حاله . ثم كتب جوابا له وعرفه بشرح حاله وحقيقة أمره . وأن ما تظاهر به
من التوبة والانابة . هو مجرد صورة لا حقيقة لها . ثم لما قدم الى طنجة
أرسل الى الشيخ مع الشريف الصالح سيدى المأمون البلغيتي . وكان مجاورا
بالمدينة المنورة . فأنزله عبد الحفيظ معه الى المغرب . ولكنه رجع بعد
ذلك اليها . فلما أتى الى الشيخ وأخبره بأن السلطان يريد الاجتماع به امتنع
من ذلك كل الامتناع . فلما رجع اليه وأخبره بامتناع الشيخ أراد أن يغريه
بالمال . فأرسل اليه أربعة آلاف ريال مع الشريف المذكور ، فردها اليه .
وصمم على عدم الاجتماع . فرجع اليه بالمال فردته ثالثا ، ووعد بالزيادة وأمره
أن يسلك معه كل مسلك ويتوسل اليه بكل وسيلة . فصار الشريف يتردد الى
الشيخ في شأن هذه المقابلة كل يوم ، ويتوسل اليه بشرفه وقرابته من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستعطفه بكل ما في وسعه والشيخ مصر
على الامتناع . ثم سأل عبد الحفيظ بعض الواردين عليه من أهل البلد عن
يحترمه الشيخ ويستحى منه . فأرشده الى بعض الفقهاء . وكان الشيخ يحبه
ويحله . فأرسل اليه وأعطاه أربعة آلاف ريال وطلب منه أن يتوسط له عند
الشيخ في الاجتماع به . فجاء اليه . ومكث معه من الضحى الى الظهر . وهو
يحاول من الشيخ المساعدة فلم يجبه اليها ، وقال له لا أجتمع بمن سلم المغرب
الى فرنسا ، وقتل سيدى محمد بن عبد الكبير الكتاني ظلما ولو فعل ما فعل
ثم تعلق بغيرها أيضا فلم يفلح . فلما أيس من الوسائط أرسل اليه يوما مع
الشريف البلغيتي يقول : إني سأقدم غدا الى منزلك ، فاذا وصلت الى باب
دارك ، وظهر لك أن تطردني فافعل . فأرسل الشيخ في الحال الى بعض

تلامذته ممن كان متصدرا عنده للاستشارة وأخبره الخبر ، وأمره أن يصرفه عنه وعرفه بأنه لا يقابله أصلا ، فأمر أربعة من أصحاب الشيخ أن يلزموا باب الدار بعصيم ليردوه اذا جاء بالقوة . ثم ذهب إلى بعض من كان متصلا بعبد الحفيظ ، وقال له اذهب اليه ، وقل له : ان الفقراء مجتمعون بباب دار الشيخ لينعوه من الوصول اليه . وعليه فالواجب أن يتأخر عن التوجه اليه خوفا من وقوع مالا يحمد . فلما بلغه الرسول ذلك أس مرة واحدة وأرسل الى الشيخ يقول له : انك لست أفضل من عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأنا لست شرا من الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد كان عبد الله بن عمر يجتمع به . فقال الشيخ للرسول ان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان عنده من الفضل وقوة الحال برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته ما يحمي دينه من التأثير بالاجتماع بالحجاج وأنا ضعيف الحال ، أخاف على ديني أن يتأثر ويضعف بسبب الاجتماع به وهكذا صرفه الله عنه ، فلم يجتمع به . ثم بعد هذا بنحو سنة وقعت الحرب العظمى وحصل لعبد الحفيظ ما أوجب سفره الى أسبانيا . فلما وصل اليها اتصل به سفير دولة ألمانيا التي كانت في حاجة الى من ينير الحرب على فرنسا في المغرب وطلب منه بصفته كان ملك المغرب وقد انتزع الملك من يده أن يحارب فرنسا ليعود الى ملكه ، وأن دولته مستعدة للمساعدة على ذلك بالمال والسلاح ، فأظهر رغبته في ذلك ، ولم يكن قصده في الواقع الا أن يبتز منهم الأموال ليصرفها في شهواته ويبذرها في ملذاته ، لكنه رأى أن ذلك لا يتم الا بالشروع في العمل ، ولم يرمن يصلح لذلك ويقوم به الا الشيخ رضى الله عنه . فأرسل الى وكيله بطنجة ، وهو عبد الهادي السلاوي وأمره أن يذهب الى الشيخ ويصحب معه الجزء الاخير من صحيح البخارى . ويتوسل اليه بالنبي صلى الله عليه وسلم وبرجال ذلك الجزء في أن يرضى عنه ، ويقبل معاملته في شأن القيام على فرنسا ومحاربتها ، وعرفه بأن دولة ألمانيا هي التي ستتولى المساعدة بالمال والسلاح

على ذلك ، فأجابه الشيخ لما علم أن الامر متعلق بالدين ، وأنها دعوة واجب تليتها والخوض فيها إلا أنه لعدم تحققه من الامر والنتيجة كلف بذلك ابن أخيه الشريف سيدى الغالى بن أحمد بن الصديق . وكان الألمان قد اتصلوا أيضا بعبد الملك بن الأمير عبد القادر محي الدين وطلبوا منه القيام أيضا ، وأمدوه بالمال وواعدوه بالسلاح . فاتصل بالشيخ رضى الله عنه وطلب منه المعونة والمساعدة . فأجابه الى ذلك ، وأمر ابن أخيه أن يذهب اليه ويتفقا معا على الامر . فاستمر على ذلك مدة الى أن هبتا شتون الخروج ، وخرجا معا . ووقعت لهما قضايا غريبة وألقى القبض عليهما بقبيلة أنجره . وصارت فرنسا ترسل إلى بعض زعماء القبائل الجبلية وتعهده بأموال تطيرها الباب أمثاله أن هو سلم اليها المذكورين ، وكتب له الشيخ يأمره بإطلاق سراحهما . وأرسل الى بعض أهل القبائل الغمارية فترلوا وتدخلوا فى القضية ، وسلم الله أمر الرجلين بمد أن كانا بين مخالف الموت .

ووصلا إلى بعض قبائل الحدود الفرنسية المغربية . وقاما بالدعوة إلى الجهاد وشرعا فيه مدة الحرب بتامها الى أن وقعت الهدنة . واستشهد ابن أخى الشيخ المذكور .

ولما شرعا فى القتال عزم الشيخ على السفر من طنجة الى غماره . وكان والده قد توفى قبل ذلك بنحو سنتين أو ثلاث . وبقي أمر الميراث بين العائلة الكبيرة موقوفا على حضوره . فأراد إنهاء مسأله مع النظر فى بعض مصالح تلك القبائل وامكان اتصالها بمساعدة المحاربين .

فلما علم الفرنسيون بذلك أرسلوا يطلبون منه التأخر عن السفر لمناسبة الحال الحاضرة خوفا ان يلتحق بالمحاربين ويقع الاجتماع العظيم لاقبال الخلق عليه . فامتنع من التأخر ، وأصر على السفر . فالتجأوا الى القوة وفرقوا البوايس فى ضواحي المدينة وأحدثوا لهم مواضع خاصة لم تكن من قبل

جعلوها على جميع الطرق المؤدية الى جهة تطوان لكونها طريق غمارة وعرفوا الشيخ بأنهم سيستعملون القوة ان خرج بغير إذنتهم ، فأصر على المخالفة لأمرهم وتنفيذ ما أراد . فصار الفقراء يشترون السلاح ويعدون العدة ليوم خروج الشيخ حتى يقابلوا البوليس بالقوة ان تعرضوا للشيخ .

فلما رأى الفرنسيون تفاحش الأمر أرسلوا من الرباط الوزير عبد القادر ابن غبريط . وكان له معرفة بالشيخ أيام إقامته بطنجة ليكلمه في التأخر عن السفر ويستميله الى فرنسا والروضخ لها ويعده ويعنيه بكل ما يريد ، فلم ينجح فيه شيء ، من ذلك ، والحالة كل يوم تزداد خطورة ، وصارت تحصل قضايا وحوادث يصطدم فيها الفقراء مع البوليس والشرط وأعوان الحكومة بما يطول شرحه .

ثم لما لم يجدوا بدا من مساعدته أرسلوا اليه يقولون : ان أمرك قد رفع إلى السلطان . ولم يبق لحكام طنجة فيه تدخل سوى تنفيذ أمر السلطان ، وأثناء ذلك ورد عليه مكتوب من الوزير محمد الجباص . قال فيه :

وبعد : فقد بلغ جناب المخزن أعزه الله أنكم تريدون السفر من هناكم لقضاء بعض أغراضكم الشخصية بهاتيكم القبائل الجبلية . وهذا أمر لا بأس به . لو كان في غير هذه الظروف الوقتية حيث إن الانسان لا يخلو من أعداء كما أنه لا يخلو من أصدقاء . فكما أن أصدقاءه يلاحظون حركاته بعين الصفاء والاحترام فكذلك أعداؤه يراقبون أعماله وينسبون اليه ما لم يكن له به إلمام ، على أن المخزن والحمد لله يعتقد فيكم الخير والصلاح ويبرى جانبكم من الخوض في هذه الأعراض الدنيوية الحائدة عن مهيع الفلاح لما يبلغه عنكم دائما من إرشاد الخليقة والأعراض عما سوى الاشتغال بوحدة الحقيقة ، ولذلك لم يرتض المخزن الشريف تحرككم في هذه الظروف الحاضرة ، ويختر سكونكم بمحلكم لما فيه من مصالحكم الظاهرة والباطنة ريثما تنقش هذه

السحابة الصيفية التي لا تمكث طويلا ، ولا تستلزم من الصبر الا قليلا .
وحينئذ تتمكنون من السفر معززين بالأوامر المخزنية ، معتمدين على الله
سبعانه وعليها في قضاء أغراضكم حاضرة وبادية .

وأما الآن فلا يخفاكم ما يترتب على ذلك من القيل والقال ، وما يمكن
أن ينسب لكم مما يعلم جانب المخزن انكم برآء منه . بل لا يحظر لكم ببال
كما لا يخفاكم ما هو وارد شرعاً في الحث على السكينة ، والمحافظة على تعميم
الراحة بكل ما أمكن . نعم إن كانت لكم أسباب أوجبت عليكم السفر من
ذلك الثغر المحوط فيبينوها لجانب المخزن بمزيد ثقة وجميل اعتقاد ، إما رأساً .
وإما بواسطة النائب المخزني لينظر فيها ونجابون عنها بما يرضيكم ويسركم
بحول الله .

هذا وقد أبلغنا لجنابتكم المحترم أوامر مولانا الشريفة . راجين ورود
جوابكم بما يحقق لمولانا أيده الله ما أديناه في جنابتكم من الشهادة بما
نعلمه من صلاح أحوالكم وصفاء طويتكم وحسن مساءيتكم الخيرية ،
محتسبين على الله ثوابها الجسيم في دار النعيم ، وعلى ما تعهدونه من المحبة
الأكيدة ، والسلام . في هجري رجب الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة
وآلف . فأجابه الشيخ وذكر له أسباب سفره التي أشرنا اليها . فورد عليه كتاب
الاذن بالسفر ، وهم إنما فعلوا ذلك سترا للحالة ، لئلا يخرج الشيخ قهراً عنهم
وتسقط منزلتهم بين الناس . ونص الكتاب : محبنا الأعز الأَرْضِي الشريف
الأجل الفقيه المرشد البركة « سيدى محمد بن الصديق » رعاكم الله ،
وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . عن خير مولانا نصره الله .

وبعد : وصلنا جوابكم عما كتبناه لكم عن الأمر الشريف ، أسأله
الله في شأن تأخركم عن السفر من طنجة . مراعاة لهذه الظروف الحاضرة .
وعلمنا ما أبدىتموه من الأسباب الموجبة لسفركم . وأتيناها لمولانا أيده الله .
واستعطفنا جنابه الشريف في إجاباتكم لمطلبكم لما نعلمه فيكم من الصدق

في القول والعمل ، وكون مثلكم يتحاشى عن التلبس بما توهم في جنا بكم وقد قبل مولانا أيده الله أعذارك وساعدك أعزه الله على السفر لقضاء وطركم ، فتوجهوا على بركة الله مصحوبين بالسلامة والعافية . ولا نحتاج الى تنبيه جنا بكم على استعمال ما يمكنكم في تسكين الروع بهاتيك الجهة الجبلية ، وحض الناس على لزوم الطاعة والطمأنينة ، ووعظهم بما ورد في السنة فيمن يوقظ نار الفتن تسمى الله أن يهديهم على يدكم المباركة لما فيه من صلاحهم وصلاح بلادهم ، ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طاعت عليه الشمس وعلى المحبة والسلام في تاسع شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فسافر الشيخ إلى غمارة ، ومكث بها ثمانية أشهر ، عالج فيها القضية بعد أن اجتمعت اليه تلك القبائل . وكان زعماءؤها يردون عليه كل يوم ، فعرف أن الخرق قد اتسع على الراقع ، وأنه لا مرد لقضاء الله . فرجع ونزل معه نحو الف وستائة رجل الى ناحية تطوان لينهى لهم القضية مع حكام الأسبان فقابل المندوب السامى وكله و شأن مصالح تلك البلاد ، ثم خرج راجعا الى طنجة عن طريق القبيلة الانجزية .

ولما كان بها واجتمع اليه أهائها خاف من ذلك بعض من كان متصدرا للزعامة ، طامها في نيل المملكة ، فدس اليه من يقتله ، وهما رجلان من أهل القبيلة العروسية ، فافتضا وأتى الفقراء القبض على أحدهما . وهرب الآخر . وأمر الشيخ بالعفو عن المقبوض فأطلق سراحه . ثم دخل الشيخ الى طنجة ، وبعد الاستراحة شرع في قراءة صحيح البخارى ، وصار يتعرض للجهاد والحث عليه ويذكر فرنسا فيسبها ويدعو عايبها بالهلاك والدمار ، والحكام حاضرون في درسه ، وكل ما يقوله يصل الى الفرنسيين بواسطة جواسيسهم فيحاولون منعه من ذلك ، فلا يجدون اليه سبيلا ، ثم كثر الخلاف والنزاع

والمناوشات بين الفقراء اصحاب الشيخ وبين الحكومة وأعوانها ، وحصلت قضايا متعددة عارض فيها الفقراء إرادة فرنسا وحكامها . فانتصروا عليها . وكانوا دائما يحصلون مقصودهم بنفوات مقصود الحكومة وإرادتها وكان ينتصر لفرنسا ، ويبالغ في إرضائها حتى طنجة إذ ذاك عبد السلام بن عبد الصادق . فلما طال الأمر وكثر الخلاف أراد أن يظهر النصيح التام ، ويقدم الخدمة الجليلة ليتوصل في نظره الى مرتبة أعلا مما هو فيه . وكان يطمع في ترقيته إلى نائب السلطان ، فصادف أن وقعت قضية لبعض الاشراف السكتانيين المنتمين الى الشيخ رضی الله عنه مع قاضي طنجة وقتئذ الفقيه علال الهرايلى القاسمى . ولطمه في محكمته ، فألقى الحاكم المذكور القبض على الشريف السكتانى ، وتوهم أن الفقراء سيتعرضون له في شأنه فأوحى اليه ظلمه وبغضه للشيخ والفقراء أن يعاجلهم بمكيدة ظن أنها ستنفعه في تشتيت شملهم وتمكن فرنسا من نفيهم وتشريدهم . فأرسل الى جميع أعيان البلد ، ولم يغادر منهم أحداً . فلما اجتمعوا بمسجد القصبة القريب من المحكمة أخرج لهم عريضة ، يريد تقديمها للسلطان ، ضمنها شكاية أهل البلد بالشيخ والفقراء ، ونسبوا اليهم عدة مضرات واعتداءات وتشويشات للامن والراحة ، وطلب من الجميع أن يوافقوا عليها بازال خطوطهم في العريضة ، ووافق ذلك هوى في نفوسهم ، فكانوا أطوع له من بنانه .

ثم وجه الكتاب المذكور إلى السلطان وبقي في انتظار ورود النتيجة فلم يظهر ما يعس جانب الشيخ والفقراء بكلمة واحدة ولكن ظهرت النتيجة في القائد وأهل طنجة . فعاجلهم الله بعقوبته وسلبهم ما كانوا فيه من العز والجاه ، وسلط عليهم الذل والمهانة والفقر والاضطرار والحاجة ، وسقطوا من عين الناس ومن عين فرنسا التي أرادوا إرضاءها بفعلتهم الشنيعة .

وأما القائد المذكور فأوقعه الله في نفس الحفرة التي حفرها لينفى الشيخ

والفقراء . فأخرج من بلده ووطنه عقب ذلك بقليل وصار متغربا في نواحي الدار البيضاء ، وخربت أملاكه بطنجة ، وانقرض منها ذكره وشتت شمله . وجمع الله شمل الشيخ والفقراء ، ولم يصب أحد منهم بسوء ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما صدرت هذه القعدة الشنيعة من أهل طنجة دخل الشيخ رضى الله عنه داره ولزم بيته ، وقطع التدريس والخروج الى الزاوية ، وقال كانت على ظهرنا أحمال وأثقال لأهل طنجة ، والآن قد أزلناها واسترحنا من ثقلها .

وقال أيضاً : كنا نريد لأهل طنجة العز والرفعة بين الناس فأبوا الاالذل والمهانة فليفعلوا ماشاءوا . وبقي في بيته من سنة سبع وثلاثين إلى أن توفاه الله تعالى سنة أربع وخمسين لم يخرج فيها إلا مرات معدودة .

منها : سفره الى القاهرة سنة خمس وأربعين لحضور مؤتمر الخلافة إذ استدعاه المصريون ، وألحوا عليه في الحضور بمكاتب متعددة . فرأى أن إجابة دعوتهم واجبة لوجوب نصب الخليفة . وكان يرجو حصول فائدة للاسلام من ذلك الاجتماع .

فلما حضر المؤتمر وجد القوم يلعبون ويمزحون ووجد المؤتمر عبارة عن إلقاء الخطب ، والتمشيق بما يظهر لكل واحد مزيته في الخطابة ، والتفصح مع ضعف الرأى ، وعدم التمسك بالشريعة في الأقوال والأعمال ، فترك الحضور معهم قبل أن ينتهى المؤتمر ، وأقبل على شأنه من زيارة ضرائح أهل الله وشراء الكتب .

ثم توجه إلى الشام لزيارة بيت المقدس ، وإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . ثم منه إلى زيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى الذى كان وقتئذ مقيا ببيروت عقب خروجه من دمشق لوجود فتنة الدروز مع فرنسا فزاره .

ثم رجع من طريق البحر على الإسكندرية ، لزيارة ضريح أبي العباس
المرسى رضى الله عنه .

ثم رجع إلى القاهرة وشد منها الرحلة الى دسوق لزيارة سيدي إبراهيم
الدسوقي . وإلى طنطا لزيارة سيدي أحمد البدوي رضى الله عنهما .

ثم رجع إلى طنجة بعد أن غاب في هذه السفرة ثلاثة أشهر ، ولزم بيته
أيضا ، فكانت وفود الزوار تتوارد عليه من كل ناحية كما هي العادة ،
بل زاد الأمر وعظم بانقطاعه عن الخروج . فكان يعمر معهم أوقاته بالمذاكرة
بأنواع العلوم والمعارف مع القيام بحقوق المسلمين وقضاء حوائجهم .

بالتوسط والشفاعات عندحكام الدولتين الفرنسية والأسبانية في المنطقتين
السلطانية والخليفة . وذلك بالمراسلة تارة مع بعض أصحابه وأحيانا بالمكاتبة
فتقضى المسأرب وتقبل الشفاعة مع شدة العداوة له من الجهتين ، والله تعالى
غالب على أمره .